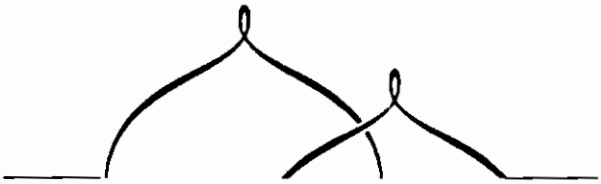

التضامن الإسلامي وآثاره في الإنسانية

هذه محاضرة ألقيناها بجامعة إبادن بمناسبة مؤتمر الشباب الإسلامي العالمي عام ١٩٧٥م.

ومصادر الموضوع تتلخص في:

كتاب الدكتور السباعي المسمى «الإسلام والاشتراكية» وكتاب «روح الإسلام» للأستاذ/ عطية الإبراشي وكتاب «العدالة الاجتماعية» للشهيد/ سيد قطب «ومن هنا نبدأ» للشيخ/ محمد الغزالي.

ولقد رأينا ضرورة نشر هذه المحاضرة كخلاصة من جميع تلك الكتب لمفهوم التضامن الإسلامي.

وإلى أصحابنا وقرائنا أزكى السلام لمناسبة عيد الأربعين من تأسيس مركز التعليم العربي الإسلامي أجيجي نيجيريا.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معنى التضامن وأصله

التكافل والتعاون والتضامن ألفاظ متقاربة يعبر كل منهما عن مفهوم الآخر.

ويطلق على القيام بجميع الأعمال الخيرية التي تعود بالنفع للفرد والجماعة.

فالتضامن يكون من الفرد إلى الفرد، ومن الفرد إلى الجماعة، ومن الجماعة إلى الفرد، وإلى الجماعة، ومن الدول للدول وهكذا.

أما التضامن الفردي: فهو ما يستطيع كل فرد أن يقوم به ويقدمه إلى غيره على حسب قدرته واستطاعته، أو على حسب استعداده الفطري.

أما التضامن الجماعي: فهو ما يحتاج إلى مشاركة عامة للوصول إلى تحقيق مطالب اقتصادية، أو علمية أو مدنية، لن يستقل بحملها فرد، وإنما يتم بتعاون الجماعة عليها.

أما التضامن الدولي: فهو التحالف السياسي، والاقتصادي، والعسكري، بين الدول للحماية والدفاع، على أن فكرة التعاون ليست نظرية علمية مكتشفة، ولكنه حاجة طبيعية وجدت مع الإنسان منذ كيانه الأول، بل هي غريزة حيوانية

تتولد مع الحيوان منذ وجوده على ظهر البسيطة، لا فرق بين الحيوان الأعجم وبين الإنسان الناطق، وقد شاهدنا أسرابًا من الطيور تتعاون، وكتلا من النمل تتعاون، كما أن الأرضة تبني أكوامها بالتعاون، وعلى ذلك سار الإنسان.

برز الإنسان إلى الوجود فصار يعمل لإسعاد نفسه بمقدار ما يستطيع، ثم رأى أنه لا تتم سعادته حتى يجد نفسه بين إخوان وأخوات، يحتاجون إلى التعاون معه، ثم يجد نفسه محتاجًا إلى زوج لتحقيق السعادة لنفسه، ثم يجد نفسه بين جماعة يتعاونون على تحقيق السعادة لأنفسهم.

فإذا تم لهم ذلك أضافوا يعملون لإسعاد الضعيف أو المريض أو العاجز من إخوانهم ومعارفهم.

لقد دعتهم الطبيعة إلى ذلك قبل أن تدعوهم النصوص الدينية إليه.

قد وجدنا لكلمة التعاون نصًا من القرآن الكريم عند قوله تعالى: ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ [المائدة: ٢].

كما وجدنا للتكافل نصًا من الحديث النبوي الشريف حيث قال الرسول ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة، كهاتين فأشار بالسبابة والوسطى من أصابعه وفرج بينهما**».

ولذلك وجدنا كلمة التضامن في الحديث الذي رواه البيهقي في سننه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**».

مبادئ التضامن الإسلامي

يقوم التضامن الإسلامي على مبادئ خمسة يتبع الأخير منه الأول على التدريج والترتيب حسبما يأتي:

المبدأ الأول: هو الإيمان بوحدة البشرية، وهذا الإيمان هو الذي يغرس الإخاء والمساواة في قلب كل إنسان. وقد جاء القرآن بهذا المبدأ في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها النّاسُ إنّا خلقناكُم مّن ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلناكُم شعُوبا وقبائل لتعارفُوا إنّ أكرمكُم عندَ اللّه أتقاكُم﴾ [الحجرات: ١٣].

وجاء النبي عليه الصلاة والسلام بقوله: «كلكم من آدم وآدم من تراب».

وجاء الإمام الشافعي يقول:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهُمُ آدم والأم حواء

وإن يكن لهم في أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء

المبدأ الثاني: هو الاعتقاد بالوحدة الإسلامية، بين الذين تجمعهم كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله وتجمعهم الصلاة في صف، وراء إمام، يوجههم إلى قبلة واحدة أينما كانوا في مشارق الأرض ومغاربها.

ويقرر القرآن هذا المبدأ في قوله:

﴿ المؤمنون والمؤمناتُ بعضُهم أولياءُ بعض يأمُرُون بالمعْرُوف وينهون عن المنكر ﴾ [التوبة: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿ إنّما المؤمنُون إخوةٌ فأصلحُوا بين أخويكم ﴾ [الحجرات: ١٠].

ويلحق بهذا المبدأ الاعتقاد بوحدة الرسالة السماوية من اليهودية والنصرانية والإسلام. ويقرر القرآن ذلك بقوله:

﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيُّون من ربّهم لا نُفرّقُ بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقوله: ﴿ شرع لكم مّن الدين ما وصّى به نُوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقُوا فيه ﴾ [الشورى: ١٣].

المبدأ الثالث: هو الإيمان بقضاء الله في توزيع الأرزاق بين العباد بأن جعل الله هذا غنيًا، وهذا فقيرًا، وهذا موسعًا عليه في الرزق وهذا مقترًا. يقول الشاعر:

ما شئت كان وإن لم أشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

خلقت العباد على ما حكمت وفي الحكم يجري الفتى والمسن

هذا مننت وهذا خذلت وهذا أعنت وذا لم تعن

ويقرر القرآن كل ذلك بقوله: ﴿ أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقوله: ﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ [الإسراء: ٣٠].

ثم اقتضت الحكمة الإلهية بأن يفيض الأغنياء من فضول ما لديهم من أموال الله على الفقراء والمعوزين لسد حاجاتهم الضرورية وقال: ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ [الحديد: ٧].

وذم القرآن الذين يزكون أنفسهم في تحصيل الأرزاق على الفلسفة القارونية التي تقول: ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ [القصص: ٧٨].

فهؤلاء الذين يحسبون أن كل ما حصلوه إنما تم ذلك بقدرتهم وإراداتهم.

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ [يس: ٤٧].

﴿ها أنتم هؤلاء تُدْعوْن لتُنفقُوا في سَبيل اللّه فمنكُم مَّن يبخلُ ومن يبْخلْ فإنما يبْخلُ عن نَفْسه واللّهُ الْغنيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَراءُ وَإن تَتولَّوْا يَستَبْدلْ قوْمًا غيْركُمْ ثُمَّ لا يكُونُوا أمْثالكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

وأثنى الله على الذين أنفقوا أموالهم ووعدهم أجرًا عظيمًا في كثير من آيات القرآن.

المبدأ الرابع: هو الرحمة بالضعيف والفقير والمسكين ومنها يتولد الإحسان الذي أمر الله به في قوله:

﴿واعبُدُوا اللّه ولا تُشْركُوا به شيْئًا وبالْوالديْن إحسانًا وبذي الْقُربىٰ واليَتامىٰ والمساكين والْجار ذي الْقُربىٰ والْجَار الْجنُب والصّاحب بالْجنْب وابْن السّبيل ومَا ملكتْ أيْمانُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦].

ويتولد من ذلك أيضًا الإيثار الذي امتدح الله به المؤمنين الأولين بقوله:

﴿ويُؤْثرُون عَلَىٰ أنفُسهمْ ولَوْ كانَ بهمْ خَصَاصةٌ ومن يُوق شُحَّ نفْسه فأُولئك هُمُ الْمُفْلحُون﴾ [الحشر: ٩].

وفي الحديث: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء». قال الشاعر:

إن كنت لا ترحم المسكين إن عدما ... ولا الفقير إذا يشكو لك العدما

فكيف ترجو من الرحمن رحمته ... فإنما يرحم الرحمن من رحما

وهؤلاء الذين استكملوا جميع ما سبق من المبادئ هم الذين يسهل عليهم المبدأ الخامس.

المبدأ الخامس: هو التعاون على تحقيق جميع الخيرات والتضامن على ما يعود بالنفع العام للإنسانية جمعاء.

ودليله قوله تعالى: ﴿وتعاونُوا على البرِّ والتَّقوى ولا تعاونُوا على الإثم والعُدوان﴾ [المائدة: ٢].

إن مدار الخيرات كلها على البر والتقوى المذكورين في هذه الآية لأن الله قد فسر البر والتقوى في قوله تعالى: ﴿ليس البرَّ أن تُولُّوا وُجُوهكُم قبل المشرق والمغرب ولكنَّ البرَّ منْ آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيِّين وآتى المال على حُبِّه ذوي القُربى واليتامى والمساكين وابن السَّبيل والسَّائلين وفي الرقاب وأقام الصَّلاة وآتى الزَّكاة والمُوفُون بعهْدهم إذا عاهدُوا والصَّابرين في البأساء والضَّرَّاء وحين البأس أُولئك الَّذين صدقُوا وأُولئك هُمُ المُتَّقُون﴾ [البقرة: ١٧٧].

لما بدأ يفسر البر ذكر بعد الإيمان بالله والغيبيات إيتاء المال على حبه مسكينًا ولجميع المحتاجين على أساس التضامن، ثم ختم الآية بأن الذين فعلوا هذا هم المتقون الأبرار.

●●●

تحديد مفهوم التضامن

لا يجهل أحد ما في التضامن من محاسن ومنافع ومصالح مشتركة بتخفيف العبء عن الفرد، لهذا ظل الناس جميعًا يرددونه بأفواههم ويلوكونه بألسنتهم، ومنهم من يدعو إلى التضامن ويصبل ويزمر له، إذا أيقن أنه ينال من التضامن نصيبًا مفروضًا.

أما إذا لزم أن يعطي غيره حقًا من التضامن أسرّ حسوًا في ارتغاء، وماطل وأحال إلى الغير وهرب من الواجب عليه، ومنهم من يتصور أن التضامن الإسلامي هو أن حكومة من الحكومات أو دولة من الدول كالسعودية والعراق وإيران وقطر والبحرين وغيرها من الدول البترولية، عليها أن تقوم بمصالح المسلمين جميعًا، تعطي إذا سئلت وتستجيب إذا دعيت وتعين إذا استعينت في السلم والحرب، لأن تلك الدول غنية بمواردها ومعادنها، أما الفقيرة فليس عليها واجب يعطي، ومن يفهم التضامن على هذا فهو خاطئ. بل الواجب الإسلامي يحتم على كل دولة أن تعطي ما عندها من قليل وكثير من مال أو قول أو فعل حسن أو قول جميل، قال الشاعر:

لا خيل عندك تعطيها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

فبناءً على هذا الأصل الإسلامي الأصيل يجب على كل مسلم في كل قرية وفي كل بلد وفي كل مدينة وفي كل قطر أن ينفق مما آتاه الله، وأن يحسن كما أحسن الله إليه إلى المضطر والمحتاج ممن أمر الله بالإحسان إليهم.

مظاهر التضامن الإسلامي

يظهر التضامن الإسلامي في كل من مرافق الحياة، ويدخل في كل ركن من أركان الحياة، وفي كل زاوية من زوايا المعيشة، كالتضامن على محاربة الجوع والجهل والمرض.

أولاً: قرر الإسلام التضامن والتكافل في المعيشة اليومية لنص من القرآن يقول:

﴿ ويُطعمُون الطَّعامَ علىٰ حُبّه مسكينا ويتيما وأسيرا (٨) إنّما نُطعمكُم لوجه الله لا نُريدُ منكُم جزاء ولا شُكُورا ﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «طعام الواحد كافي الاثنين وطعام الاثنين كافي الأربعة وطعام الأربعة كافي الثمانية».

إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو وفني زادهم أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم. رواه البخاري ومسلم.

وقوله عليه السلام: «ليس بالمؤمن الذي يأكل وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم».

ويلحق ذلك إكرام الضيف لقوله عليه السلام: «من كان يؤمن بالله فليكرم ضيفه الضيافة ثلاثة أيام ثم جائزته يوم وليلة».

ثانيًا: يقرر الإسلام التضامن على محاربة الجهل، لذلك حمل الإسلام العالم مسؤولية تعليم الغير بقوله: ﴿وإذ أخذ اللّهُ ميثاقَ الّذين أُوتُوا الكتاب لتُبيّننهُ للنّاس ولا تكتمُونهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقول النبي ﷺ: «إن الله فرض على العالم أن يعلم كما فرض على الجاهل أن يتعلم».

ثالثًا: قرر الإسلام التضامن على محاربة الأمراض النفسية والاجتماعية، إذ أوجب على كل من رأى منكرًا أن يغيره ويصلحه بقوله تعالى:

﴿ولتكن منكم أمّةٌ يدعُون إلى الخير ويأمُرُون بالمعرُوف وينهون عن المنكر﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده وإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه فذلك أضعف الإيمان».

رابعًا: قرر الإسلام التضامن بين الفقراء والأغنياء في فريضة الزكاة. وأوجب على الدولة أن تخصص للفقراء ميزانية خاصة منها الغنيمة والفيء والأوقاف.

أما الزكاة: فهي ما يخرجها الغني من ماله كل عام أو من محصولاته الزراعية أو مما يرعاه من المواشي.

أما الغنيمة: فهي ما يحصل عليه المجاهد بقتال في سبيل الله من أموال وأعراض يقسمها الأمير والحاكم أو السلطان بين المجاهدين.

أما الفيء: فهو ما يسوقه الله إلى المجاهدين من الأموال بدون قتال.

ونص الزكاة في قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ [التوبة: ٦٠].

ونص الغنائم والفيء عند قوله تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١].

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

وأشهر مظاهر التضامن الإسلامي هو:

الأوقاف الخيرية: فهي إبقاء الأراضي والبيوت والعقارات محبوسة على المشروعات الخيرية من مدارس ومعاهد ومساجد ومستشفيات تنفق عليها دائمًا إلى قيام الساعة.

وعلى ذلك أوجدت الأوقاف في كل بلد إسلامي حتى أسست لها وزارة خاصة.

●●●

التضامن الإسلامي من الواقع التاريخي

تلك هي النصوص الصريحة التي وردت من أصول الشريعة الإسلامية وطبقها النبي عليه السلام وخلفاؤه الكرام.

وقد ظهر هذا التضامن جليا في زمن سيدنا عمر الذي نظم الدولة ومصادرها ومواردها، وسجل أسماء العمال وأصحاب الأعطيات والمحتاجين والمستحقين، وكان يعطي الرجل على حسب كفائته وبلائه وسابقته وحاجته وكان يفرض لكل مولود مائة درهم.

وهو الذي قال قولته المشهورة:

لو استقبلت من أمري ما استدبرته لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين.

ولم يقتصر عمر في تطبيقه هذا التضامن على المسلمين بل أجرى ذلك على غيرهم، حيث إنه مر يومًا بشيخ كبير يسأل الناس فسأله ما أنت يا شيخ؟ فقال: ذمي يهودي يسأل الجزية والصدقة فقال له عمر:

ما أنصفناك أكلنا شبيبتك، ثم ضيعناك في هرمك. ثم أخذه إلى بيته فأعطاه ما وجد، ثم أرسله إلى خازن بيت المال فقال: «انظر إلى هذا وأضرابه فافرض لهم من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم».

ومر في طريقه إلى الشام بقوم مجدومين من النصارى فأمر بأن ينفق عليهم من بيت المال.

هذا هو التضامن الإسلامي!! الفردي والجماعي والحكومي.

فأروني التضامن الغربي مثل ذلك!!.

●●●

obeikandl.com

مبدأ التضامن الغربي

على أن التاريخ يحدثنا بأن الدول الغربية لم تبدأ في التفكير بضمان حقوق الفقراء إلا منذ القرن السابع عشر فقط، وكانوا يرون أن هذا من وظائف الجمعيات المحلية التي كانت تقوم بإطعام الفقراء، واستمروا على هذا حتى أواخر القرن التاسع عشر.

وأول دولة في الغرب بدأت بتنظيم الضمان الاجتماعي هي ألمانيا التي أصدرت عام ١٨٨٣م أول قانون ضد الأضرار التي تطرأ على العمال أثناء العمل، ثم أصدرت عام ١٨٨٦م قانون التأمين ضد المرض والشيخوخة للعمال.

وفي عام ١٩١١م أصدرت قانونًا لتأمين المستخدمين ضد العجز والشيخوخة والوفاة، وفي عام ١٩٢٣م أصدرت قانونًا لتأمين عمال المناجم.

ثم تبعت ألمانيا بعض الدول الإسكندنافية وعارضته الدول اللاتينية وبريطانية في بادئ الأمر ثم اقتنعت به عام ١٩٠٨م، وصار التضامن الاجتماعي معمولاً به في جميع الدول الأوربية فقط منذ ١٩٣٣م.

●●●

التأمين أكبر أثر للتضامن عند الغرب

فالتضامن الاجتماعي عند الغربيين قائم على مبدأ الفائدة والمصلحة كما هو واضح في نظام التأمين.

وعن نظام التأمين يقولون إنه ضمان للمستقبل من الطوارئ والموت والعجز، ويطلبون من التاجر أو العميل أن يخرج مبلغًا معينًا من نفقاته شهريًا أو سنويًا يدخره عند الشركة ليؤمن به على مستقبله، فإذا فاجأته كارثة رجع إليه العوض سريعًا مع صيانة كرامته عن انتظار الصدقات والتبرعات التي قد تأتي وقد لا تأتي.

وأجبرت الحكومات جميع المصانع والأشخاص على التأمين، فصارت شركات التأمين تبتلع أموال التأمين على سبيل المقامرة التي حرمتها الأديان كلها.

وإدارة المقامرات تعمل دائما على ضمان الربح للإدارة، وهي التي تربح دائمًا عندما يخسر المقامرون.

أما التضامن الإسلامي كما سبق بيانه فليست تجارة ولا صناعة ولا مقامرة، وإنما هي صدقات وحالات ونفقات وإحسانات وتعاونات لا تهدف إلى مصلحة ولا إلى فائدة، وإنما هي خالصة لوجه الله تعالى والإنسانية.

●●●